عصفور من الشرق

تأليف الأستاذ توفيق الحكيم

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

هذه نفحة أخرى لصاحب أهل الكهف وشهر زاد ، نفحة فيها روح توفيق الحكيم وفن توفيق الحكيم ، حتى لو أن الكتاب الذي يزجيها إليك كان غفلاً من اسم مؤلفه ما استطعت أن ترده إلا إليه ...

ولقد انتظرت هذا الكتاب منذ أن أعلن عنه ، فلما تفضل مؤلفه الفاضل بإرساله إلى أقبلت عليه فتلوته ، ولشد ما رغبت لو أنه طال عما هو عليه ليطول بذلك استمتاعي بتلك اللذة الساحرة التي لن يظفر بها المرء إلا في أمثال تلك القصة من الآثار الفنية العالية ؛ وهأنذا أقدم الكتاب لقراء الرسالة لا أبتغي إلا أن أدلهم على متعة قوية أحب لهم — من فرط ما أعجبت بها — أن يشاركوني فيها

ولو كان المجال هنا مجال نقد يبسط موضوع الكتاب ويعرض لدقائق الفن فيه ، لخشيت أن يحملني إعجابي به على الغلو ، ولكني الآن بنجوة من هذا ، فقصاراي هنا الوصف المحدود ؛ ذلك أن الكتاب كغيره من الآثار القيمة جدير أن يفرد له صفحات أوسع من هذا المجال الذي تتركه لي الرسالة اليوم ...

قوة هذا الكتاب وخطره منحصران فيما يتضمنه من فكرة تستطيع أن تجملها في مسألة هي روحية الشرق ومادية الغرب ؛ أما القصة في ذاتها فبسيطة سهلة لا التواء فيها ولا جلبة ولا حركات مثيرة ولا مفاجآت قوية ولا غير هذه من ضروب الاستهواء التي نصادفها في بعض القصص ؛ ولقد جاءت تلك البساطة نوعاً من الجمال في الكتاب فكان كآثار راسين سحره في عمق الفكرة ودقة الفن لا في مثيرات الحكاية

هذا محسن فتى شرقي يقيم في باريس ويعرفه الناس بأنه « عصفور من الشرق » تقع عيناه على حسناء من حسان باريس فتستأثر بلبه ويأخذ حسنها بمجامع قلبه ؛ فإذا به يعيش بخياله الشرقي وروحانيته الشرقية عيشة أهل الجنة على هذه الأرض ؛ وتتهيأ له سبل الاتصال بالفتاة ومجالستها ومصاحبتها حتى يصطدم بالواقع ويرى أنها لا تحبه وأنها تخدعه فيكون موقفه — كما صوره المؤلف — موقف آدم عند خروجه من الجنة ...

تلك هي الحادثة ، وهي كما ترى بسيطة غاية البساطة ، ولكنها على بساطتها مليئة بألوان السحر والفن فوصف شعور محسن في حبه يهيج النفس ويملأها نشوة ، وبراعة الحوار والمناجاة هي السحر بعينه ، بله دقة الفن وحسن سبكه

على أن خطر الكتاب وقيمته — كما قدمت — في فكرته ؛ ولقد استطاع قصاصنا الكبير أن يدلي بآرائه على ألسنة أشخاص صورهم أحسن تصوير وأبرعه ، فهذا هو محسن وهذا هو أندريه الغربي الذي لا يعرف خيالاً ولا شعراً ؛ والذي يعتبر نقيضاً لمحسن يهزأ به وبأحلامه يسوقهما المؤلف لترى فيهما روح الشرق وروح الغرب ، ثم هذا ايفانوفتش الروسي العامل الذي يجري المؤلف على لسانه الجزء الأكبر من فلسفته ، ثم هذه هي سوزان الباريسية الحسناء التي أحبها محسن ، إلى غير هؤلاء من الأشخاص الذين صورهم المؤلف أصدق تصوير وأجله ؛ ولو أني أردت أن أدلك على مواضع الجمال والقوة فيما جرى على ألسنتهم من آراء لدللتك على الكتاب كله ، ولست — شهد الله — أغلو في ذلك ولا أسرف ؛ ولم يقتصر المؤلف الفاضل في تصوير حياة الغرب على الآراء التي أجراها على ألسنة هؤلاء الأشخاص ، بل لقد صور لنا عدة مناظر من الحياة ذاتها كالأسرة التي كان

يعيش فيها قبل انتقاله إلى النزل وكالمسرح وحفلات الموسيقى وغيرها فأحاط كتابه بجو بديع ؛ ولم يكن — شأنه فى ذلك شأن الفنان المتمكن من فنه — بعرض من الصور والمناظر إلا ما يستلزمه إبراز الفكرة الفلسفية التى تدور عليها القصة ؛ انظر إلى الولد الصغير يوحى إليه بمحاربة البوش والشيخ المسن يبدى تذمره واستياءه إذ يعرض لحال العمال وربة الأسرة تخشى أن يرحل محسن إلى جهة أخرى ولا مرتزق لهم إلا ما يدفع من أجر ، تر صوراً قوية أخاذة لحياة الغرب يقدمها المؤلف بين يدى فكرته فى مهارة تحملك على الاعجاب ...

ولقد كان فى التعبير عن فكرته بهذه الطريقة موفقاً جهد التوفيق ، فليس أوقع من الإيحاء والاشارة فى تصوير المعنى الفلسفى المراد ؛ تجد ذلك فى الشعر وهو الصور القائمة على اللفظ وتجده فى التصوير بالألوان ، وتجده فى الموسيقى ؛ ولعمرى ما يستطيع عالم من علماء النفس مهما اتسعت آفاق علمه أن « يصور » لك الأنانى أو المخاتل أو الغيران أو الجشع أو اللئيم أو غير هؤلاء كما يستطيع أن يفعل رجل الفن ، فرسم الصور الحية عمل ذلك الفنان ومنها تأخذ من المعانى ماشئت وشتان بين الصورة الحية والمعانى المجردة ؛ وهل قامت عظمة شكسبير ودكنز وجوته وهوجو وراسين وأضرابهم إلا على ذلك الفن الذى يخلق من المعانى الحياة ؟ وإنك لتستطيع أن ترد نجاح توفيق الحكيم ونباهة شأنه إلى هذه الموهبة الفنية أكثر مما ترده إلى أى شىء آخر

وأحب أن أشير هنا أن شخصية محسن هي كما يدرك القارئ دون عناء شخصية المؤلف نفسه تتجلى هنا كما تجلت فى قصة « عودة الروح » كما أحب أن أشير على الرغم من ضيق المجال أن هذا الكتاب يقدم لنا دليلا جديداً على أن فن توفيق الحكيم فى القصة فن غير مقصور على ناحية معينة ، ولقد قدم لنا فى أهل الكهف وشهر زاد لونين من ألوان القصة المسرحية ، ثم أرانا فى عودة الروح لوناً من ألوان القصص غير المسرحية ، وفى يوميات نائب فى الأرياف أتى بنوع جديد يعد من القصص الاصلاحية ، ثم هو فى هذه القصة الأخيرة يأبى إلا أن يبتدع فهو كما ترى لا يتخصص فى نوع واحد ، ولكنه مع ذلك يسمو فى كل نوع سمواً يشعرك فى كل قصة كأنه أوقف على لونها فنه ومواهبه ، ولقد يحسب بعض النقاد هذا مستحيلا أو يعدونه نقصاً ويستشهدون على ذلك بأن كثيراً من كبار القصاصين يقتصر الوحد منهم على لون لا يحسن غيره ، ولكن توفيق الحكيم يقيم الدليل القاطع على غلوهم فى هذا الزعم ، وما ذا عسى أن يحول بينه وبين الاجادة فى كل نوع والمسألة كلها مسألة قصص وهذا فن ركب فى فطرته وإن له من قوة روحه وعمق فلسفته وسعة ثقافته لمعين لا ينضب ؟ إننا لا يسعنا كما أسلفت فى معرض آخر إلا أن نمتز بفن توفيق الحكيم كمظهر من مظاهر نهضتنا الثقافية وما أحوجنا إلى أمثاله فى جميع نواحى حياتنا الأدبية والعلمية . أجل ما أحوجنا إلى أمثاله النابغين الذين يردون بالعمل الناضج الفذ على الذين يرموننا بالقصور وينكرون علينا استعدادنا للتفوق . فليتقبل منى الأستاذ النابه هذه المجالة تحية معجب وتحية صديق

الخفيف

رحلة المحيط الهندى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

الانسانية فى شتى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين فوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧